الإيمان القوة التي تهزم الغرائز وتبني الإنسان

الجمعة 10 يوليو 2026 05:00 م

في عالم تُقاس فيه القوة بما تمتلكه الأمم من أسلحة وجيوش وتقنيات، يطرح هذا الحوار التربوي سؤالًا مختلفًا: ما أعظم قوة عرفها الإنسان؟ ومن خلال نقاش بين أستاذ وتلميذه، يتدرج الحديث من القوة المادية إلى القوة التي توجه الإنسان نفسه، ليخلص إلى أن الإيمان بالله هو القوة الأعظم؛ لأنه يصنع الإنسان القادر على تسخير كل ما حوله، وضبط غرائزه، والثبات أمام الابتلاءات، وتحقيق النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة

ويستعرض الدكتور يوسف القرضاوي مفهوم الإيمان في الإسلام بوصفه قوة دافعة تهذب النفس، وتضبط الشهوات، وتمنح الإنسان القدرة على الصبر والتضحية والثبات، مستشهدًا بقصة نبي الله يوسف عليه السلام باعتبارها النموذج العملي الذي جسّد انتصار الإيمان على الغريزة، والصبر على الظلم، والعفو عند المقدرة، حتى انتهى به الطريق إلى التمكين في الأرض ورضوان الله

البحث عن أعظم قوة

يفتتح الدكتور رؤيته عبر حوار بسؤال يطرحه الطالب على أستاذه حول أعظم قوة عرفها الإنسان، معتقدًا أن القوة العسكرية المتمثلة في الصواريخ والقنابل الذرية هي ذروة ما وصل إليه البشر لكن الأستاذ يقوده إلى حقيقة أعمق، حين يسأله: أيهما أقوى، السلاح أم الإنسان الذي صنعه وأطلقه؟ ليقر الطالب بأن الإنسان هو القوة الحقيقية لأنه صاحب العقل والإرادة التي تسخر المادة وتوجهها

ومن هذا المنطلق ينتقل الأستاذ إلى سؤال أكثر عمقًا: إذا كانت هناك قوة تستطيع أن توجه الإنسان نفسه، وتدفعه للعمل، وتضبط قراراته، فستكون أعظم من كل قوة مادية عرفها البشر، وهنا يكشف أن هذه القوة هي قوة الإيمان بالله

الإيمان بالله مصدر القوة

يوضح العلامة أن المقصود ليس مجرد الإيمان بأي فكرة أو مبدأ، فحتى العقائد الباطلة قد تمنح أصحابها شيئًا من الصلابة والثبات، وإنما الإيمان المقصود هو الإيمان بالله خالق الكون والإنسان، والإيمان بالآخرة والجزاء، والملائكة، والوحي، والرسل، والقدر، وكرامة الإنسان واستخلافه في الأرض

ويبين أن هذا الإيمان هو الرسالة التي جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين، وهو العقيدة التي تملأ القلب يقينًا، وتجعل الإنسان يدرك أن الكون يسير بتقدير الله، وأن الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء يعقبها حساب وجزاء، فيصبح أكثر التزامًا بالحق وأشد تمسكًا بالقيم

الإيمان يوجه حياة الإنسان

يرى الدكتور أن الإيمان ليس مجرد معرفة ذهنية أو شعور داخلي، بل هو قوة عملية تدفع الإنسان إلى الخير، وتمنعه من الانحراف، فهو يسند الضعيف حتى لا يسقط، ويكبح القوي حتى لا يطغى، ويمنع المنتصر من الظلم، كما يمنح المهزوم الأمل فلا يستسلم لليأس

وبذلك يتحول الإيمان إلى قوة موجهة لحياة الإنسان كلها، تضبط سلوكه، وترسم أولوياته، وتجعله ينظر إلى الدنيا باعتبارها طريقًا إلى الآخرة، لا غاية مستقلة عنها

الغرائز أمام سلطان الإيمان

ينتقل الحوار إلى قضية الغرائز الإنسانية، فيذكّر الطالب بما تعلمه من قبل عن قوة غرائز البقاء، والشهوة، والغضب، فيؤكد الأستاذ أنها بالفعل غرائز قوية لا يمكن إنكارها، لكنها حين تخضع للإيمان تصبح وسائل نافعة بدل أن تتحول إلى أدوات للهلاك.

ويؤكد أن الإيمان لا يلغي الغرائز، وإنما يجعلها تعمل تحت قيادته، فيصبح هو السيد الآمر، بينما تتحول الغرائز إلى وسائل مسخرة لخدمة الإنسان في حدود ما أذن الله به.

يوسف نموذج الإيمان الصادق

يضرب القرضاوي مثلًا عمليًا بنبي الله يوسف عليه السلام، الذي جمع بين الشباب والجمال والقوة، ثم تعرض لواحدة من أعظم الفتن حين راودته امرأة العزيز عن نفسه، وهي صاحبة جاه وسلطان، بينما كان هو عبدًا غريبًا لا أهل له ولا سند.

ويبين أن جميع الظروف كانت تدفع يوسف للاستجابة، لكن إيمانه بالله كان أقوى من شهوته، فواجه الإغراء بقوله: {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}، معلنًا أن مراقبة الله غلبت كل دوافع النفس.

اختيار الدين على الدنيا

لم تتوقف المحنة عند الإغراء، بل تحولت إلى تهديد مباشر بالسجن والإذلال إن لم يستجب لرغبة امرأة العزيز، فوجد يوسف نفسه بين خيارين: الوقوع في المعصية أو تحمل السجن.

ويبرز الشيخ كيف اختار يوسف سلامة دينه على راحة دنياه، فرفع يديه إلى الله داعيًا: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}، مفضلًا السجن على الوقوع في الفاحشة، لأن الإيمان جعله ينظر إلى العاقبة لا إلى المشقة الآنية.

الدعوة داخل ظلمات السجن

استجاب الله دعاء يوسف، فصرف عنه الفتنة، لكنه دخل السجن ظلمًا، وهناك لم ينس رسالته، ولم ينشغل بمصيبته عن دعوة الناس إلى الله.

ويستعرض الدكتور كيف استغل يوسف لقاءه بصاحبي السجن، ففسر لهما الرؤيا، ثم دعا إلى توحيد الله، وبيّن بطلان الشرك، مؤكدًا أن السجن لم يمنع المؤمن من أداء واجبه في الدعوة والإصلاح.

التمكين ثمرة الصبر والإيمان

بعد سنوات من السجن، احتاج أهل مصر إلى علم يوسف وحكمته، فخرج بعد أن ظهرت براءته كاملة، ثم أصبح مسؤولًا عن خزائن الأرض، بعدما شهد له الملك بالأمانة والكفاءة.

ويبين العلامة أن التمكين لم يكن مكافأة دنيوية فحسب، بل كان ثمرة لصبر طويل وثبات على الحق، ليصبح السجين بالأمس هو صاحب القرار في إدارة اقتصاد مصر خلال سنوات المجاعة.

النعمة امتحان للمؤمن أيضًا

يشير الشيخ إلى أن الابتلاء لا يكون بالمصائب وحدها، بل يكون كذلك بالنعمة والسلطان، مستشهدًا بقوله تعالى: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}.

ويؤكد أن يوسف نجح في هذا الامتحان أيضًا، فلم يغيره المنصب، ولم يستعبده الملك، وظل متواضعًا، يقتصد في طعامه خشية أن ينسى جوع الفقراء، وظلت الدنيا في يده لا في قلبه.

العفو عند تمام القدرة

ومن أعظم صور الإيمان التي يقدمها التقرير موقف يوسف من إخوته الذين ألقوه في الجب وباعوه عبدًا، إذ تمكن منهم بعدما صار صاحب سلطان، لكنه لم ينتقم منهم.

بل قابل إساءتهم بالعفو، وقال لهم: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، ليقدم نموذجًا عمليًا في التسامح الذي يصنعه الإيمان الصادق.

غاية المؤمن رضوان الله

ورغم ما أوتي يوسف من ملك وسلطان، بقي قلبه متعلقًا بالله، فلم يجعل المنصب غاية حياته، وإنما توجه بالدعاء أن يختم الله له بالإسلام ويلحقه بالصالحين.

ويختم القرضاوي بالتأكيد على أن هذا النموذج الخالد يجسد حقيقة الإيمان الذي دعا إليه الأنبياء جميعًا، فهو القوة التي تنتصر على الشهوات، وتصبر على البلاء، وتحسن عند التمكين، وتعفو عند القدرة، وتبقى متعلقة برضوان الله حتى آخر العمر، ليكون يوسف عليه السلام قدوة للشباب، وعبرة لأولي الألباب، ودليلًا على أن الإيمان بالله هو أعظم قوة عرفها الإنسان